

الروائي التونسي المحسن بن هنية* ل: عمان (حاورة الدكتور: عبد الرحمن تبرماسين)

إن نسا خلا من عطور الأنثى هو شبيها ببيت لا تمرح فيه هذه الأنثى

في جو ربيعي بهيج وجميل جمال تونس الخضراء انعقدت ندوة الرواية العربية بسيدي بوزيد 24 مارس 2007 وكان الحضور نوعيا ومن جمهور خاص قلما شاهدت مثله إلا في الملتقيات الأكاديمية، إذ كان في القاعة أدباء ونقاد لهم باع في عالم الرواية أمثال: عبد الرحمن مجيد الربيعي، وإبراهيم الدرغوثي، وضافر ناجي، وبوشوشة بن جمعة، ومحمد طرشونة، وعمر حفيظ، ورياض خليف، وآخرون. وكان اللقاء حميميا مفعما بالسؤال عن مخاض التجارب وهموم الكتابة وما ينتابها من حرية أو قيد، أو من دواع تجعل الكاتب يخوض غمار المغامرات والأعاجيب ويفتق الخيال ليصنع منه عالما سرديا ساحرا يرمي بالمتلقي في أجواء صوفية أو غرائبية أو ينقل له فضاء مليئا بتوابل التاريخ والأساطير تارة تتداخل فيه الأزمنة، وتارة أخرى تنتشطي، لتلهب مشاعر المتلقي وتجعله يطرح أكثر من سؤال لآعن مصير الأبطال والشخص وإنما عن الفكرة التي يريد الأديب تمريرها بأمان، وأعجوبة أيضا.

بعد انتهاء الندوة كان الكرم التونسي الحاتمي حاضرا دائما وكان المبيت والسهر في بيت الأديب الروائي التونسي "المحسن بن هنية" رفقة الروائي العربي الكبير العراقي "عبد الرحمن مجيد الربيعي"، والناقد المختص في السرديات العربية عموما والمغربية خصوصا "بوشوشة بن جمعة" حيث أكملنا بقية القول الذي لم نتمكن منه في الندوة وكانت الطرفة والأحداث حاضرة. وكانت أسئلتي للمحسن بن هنية كالآتي:

س - لنبدأ من حيث تكاد تنتهي رواية "مرافئ الجنون" ص 136
لسنا أعداء باستثناء الساسة وتجار السلاح؟ ما معنى ذلك؟ ألا تخاف منهم؟

ج - لست أول القائلين بهذا. ثم إدعائي هذا ليست دعوة أختص بها. فهي إلى الجبله أقرب حيث جبل عليها الرسل والعلماء والمصلحين وكافة الناس الطبيين من سائر شعوب الأرض ولذلك انتهجت نهج هؤلاء منطلقا من مقولة قرأتها وأنا بعد شاب للفيلسوف البريطاني برتراند روسل جاء فيها ما معناه "إن أحقادنا سيسخرون منا ومن حماقة الحروب التي لا تليق بمخلوق عاقل". ثم تأملت في تاريخ البشر فتبين لي أن القوة الوحيدة التي تترك الأثر البالغ الأهمية هي المحبة الصادقة. فالحروب من طروادة مرورا بهولاكو.. وتيمور لتكن إلى هتلر وبوش. لم تقدم خيرا للناس غير الموت والعداء. في المقابل ترى أفرادا عزلا كالسيد المسيح أو ك: كنفوشيسوس أو الرسول محمد بن عبد الله وأخيرا المهاتما غاندي قدموا للناس من المحبة والسلام أكثر من الخراب الذي أحدثه الجبابرة الطغاة. ولأجل الالتزام بهذه الحقيقة جعلتها الهدف من الكتابة التي أمارسها منذ البداية أعلنت ذلك في روايتي الباكورة "ثبات" بداية المحاولة فجاء في الصفحة 37 و إحدى أبطال الرواية وهو شاب زنجي يسمى "تيمالا" يدعو إلى قيام جمهورية الأرض " نوكد أن دولة الأرض ستكون قائمة وعندها تطفأ نار الدمار وتنتفي جريمة الحرب ويتحول الإنسان الذنب إلى الإنسان الإنسان ويسقط الساسة مختلفو النزاعات والحروب وتسود كلمة لا للسلاح ... لا للاغتبال.

وتواتر ذكر "تيمالا" الذي أصبح شخصية حاضرة في كتاباتي حتى ظننت أنه موجود بالفعل وأن له رأي يخالف بعض قناعاتي ففي روايتي الثالثة " الزمن ورووس الحية" يلتقي به أبطالها في القدس وهو يخطب في جموع الطلبة يدعو إلى جمهورية الأرض وعلاقة أخرى بين البشر فجاء في خطابه " ... أيها الأخوة البشر ... أنتم عندي مجموعة من البشر وليس هذا فلسطينيا وهذا يهوديا أنتم بشر وما دون ذلك هو من اختلاق بشر يأكلون لحوم بعضهم ويببحون ذلك. ولهذا ما أنا إلا واحد منكم وإن أمثالي هم الأكثر من أبناء البشر واسمحوا لي أن أبدأ كلامي هذا بما قاله أحد المدركين لأهمية بشريتهم وهو الكاتب الانكليزي جوزيف روتبلات فاستمعوا له يدعوكم . "

علينا أن نتعلم كيف نفكر بطريقة جديدة... وهنا المشكلة التي نقدمها لكم عارية صادقة مفزعة وبغيضة ولا يستطيع أحد الهروب منها. هل نضع نهاية للبشرية عن طريق الحرب النووية أو نقوم كبشر بإدانة الحرب. ثم مثلا آخر على هذا النهج في روايتي "على تخوم البرزخ" " وبعض من السفهاء يركبون ظهورنا غصبا يحشروننا صفوفا من الجند مدججين . وهذا لذلك قاتل".

ثم ما أشرت له سيدي في سؤالك في رواية "مرافئ الجنون" وهناك في مجموعتي القصصية " الزهرة والخريف" قصة تحمل عنوان تيمالا... وقد التقى صدفة أحد أبطال الرواية السابقة وهو في مكان قد يكون

بغداد أو كابول أو غزة أو بيروت ففاضية على آماله الكاذبة" وسأله " هل صحيح قول الناس بأنهم يتقدمون..؟ وهل البشر سائرون إلى الأفضل أم تراهم يراوون مكانهم..؟ أليس الحق أنهم أبناء هابيل وقابيل. وما ظلم من شابه أخاه..؟! "

والكثير لا يتسع له المجال في باقي كتاباتي. ولهذا يمكنك ربط هذا الخيط بكل أعالي . وعندها قد يتضح المعنى.. أما الخوف منهم فليست الشجاعة هي التي تشفع لي أو تدفعني إلى مواجهتهم وإنما احتقارهم واستخفافهم بالرأي المكتوب واعتبارهم له على أنه لا يعني شيئا أمام قوة الحديد والنار وقبضة البوليس وانتهاجهم نهج القافلة تسير والكلب ينبج. وهي حالة جهل يتخط فيها الساسة منذ زمن بداية تشكل مفهوم السلطة.

س – أعمالك القصصية والروائية فيها دعوة إلى نبذ العنف واقتلاعه من الأساس ومن ذلك هذا الإهداء " لكل العمال والمهندسين والفنيين الذين خيروا البطالة على العمل في مصانع السلاح ... والذين رفضوا التجنيد. وقولك أيضا: من أقيح فضائلكم الموت من أجل الوطن. كما أنك تمجد الطيار الذي يفرغ حمولته في البحر أو في أي مكان بدلا من إفراغها على رؤوس البشر. هذه الأقوال تتنافى والسياسات الاقتصادية المختلفة (الرأسمالية والاشتراكية) والأيدولوجيات أيضا وحتى الذين يدعون إلى العولمة لم يرتقوا بأفكارهم إلى هذه الدعوة !

ج – سؤالك هذا مهم ويدل على ما وراء قراءتك واستشفاف المهدي وف من الكتابة والمرغوب من خلف السرد والمتمن الحكائي. والمتأثر به بعد هضم النص. وبالتالي ما يفرزه الذهن من عصارات لتغذيته كما يفرز الجهاز الهضمي عصارات الطعام لتغذية الجسد. ثم إدراك رسالة الكاتب المأمول منه أن تصل إلى المتلقي ورسالتني التي أبعث بها من خلف سيلان الحبر على الورق كما ذكرت في جوابي السابق. هي تتلخص في هدم معامل السلاح وغلق ثكنات الجيوش ورفض الشباب لخدمة التجنيد وإلغاء مفهوم مصطلح " الواجب الوطني" وإدراك أنها خدمة لصالح الحكام الماسكين بأعناق الناس وأصحاب المصالح أو قل أهل الجشع والاحتكار والاستئثار حتى بغذاء الإنسان وحاجته. والتحكم في شراواته وبيوعاته والجلوس على أريكة " الغاية تبرر الوسيلة". ولعل المنتبج للأخبار المسكوت عنها يدرك أن الشباب استجاب لنداء "تيمالا". وهكذا نرى الراضين للتجيش يتكاثرون وينشئون منظمات تدافع عن حقهم في الرفض وذلك نراه في أمريكا وإسرائيل... وأنا إذا أطلق لجام قلبي بصراخ وقد سبقني الكثيرون بهذا النداء لإدراك أن الإنسان اليوم بدأ يعي هذه الحقائق. وأن دعوة "تيمالا" هي قد تصبح مذهب كل سكان الأرض. وقد ألغيت المسافات وحتى اللغات واقترب سكان مشارق الأرض من مغاربها. وهذا حصل بجهد أهل العلم الذين طوروا وسائل الاتصال. والتي احتكرها من قبل زبانية الحرب ورعاة الجنود. ولكنها انفلتت منهم تحت غاية الربح والاتجار. وهذا الانفتاح الناتج عن الطمع انقلب أو سينقلب سحره على الساحر ولذلك إذا تتبعنا نشوء وتطور صناعة السلاح وخاصة المتفجرات والقوة النووية لم يكن العلماء المخترعون يقصدون هذا الذي وجهت صوبه. ولنا في سيرة "الفراد نوبل" وجماعة مختبرات "مانهاتم" في أمريكا عبرة. فقد سرقت جهود هؤلاء وبدل أن تكون في خدمة الناس طوعت وجهتها نحو هلاكهم عندما استحوذ عليها السلطان ووضعها في يد العسكري الذي ياتمر بأمره ويخدم مصالحه ويعمل بأي وسيلة على تحقيق أغراضه وأهدافه المضادة للإنسان. والذي كما أشرنا أن الإنسان من فطرته حب السلام والدعة والاطمئنان حتى ولو كان مجندا. وهو الآن أصبح يدرك أنه لا يدافع عن وطنه أو مصالحه العليا كما زين له وشوش في أذنه وإنما هو لا يختلف عن البندقية التي ينز بها كتفه. فهو كأداة لتحقيق مصالح هذا الذي جنده وحشره في ساحات الموت. إذا الأفضل له ولكل الناس أن يعلن عصيانه ورفضه لهذا الامتحان القاتل المذل والمتجاوز حتى إلى مفهوم العبودية وامتلاك بشر لبشر.

أما اختلاف أقوال مع السياسات والإيدولوجيات فهذا هو الصدق لأنها أي السياسات والإيدولوجيات هي طريق لضبط الناس في نهج لا يخدمهم وإن قدم لهم خدمة فهي بعض الفتات لإرضائهم وذر الرماد في عيونهم وهي قشور. أما اللب فهو من نصيب السادة ورجال السياسة. وهكذا سميتهم "أعداء الناس" أما الإيدولوجيا فهي ضرب من النشيد الحماسي والطين الذي تحشو به أدمغة البسطاء من عباد الله. ولذلك أخمن أن شباب اليوم بدأ يتململ وينتج نحو دعوة "تيمالا" القائلة أن الأرض بحجمها الذي أصبح يبدو ضئيلا. لا تتحمل بأن تكون أكثر من جمهورية واحدة. أما الحدود والجمارك وهذه الحواجز والتصنيفات والقوميات والعصبيات كلها من صنع الملوك والسلاطين وهي لا تختلف - في سرهم - على أنها ضياع مملوكة وقد جندوا فيها وحولها حرسا شدادا لا يعصون أمرهم. أما "العولمة" فهي غاية الرسل وما محمد خاتمهم إلا رسولا للعالمين ثم للناس كافة. وفكرة عالمية الإنسان هي سنام الارتقاء من القطعان إلى المجموعة الواحدة. ولكن الحال هي نفس حال جهد العلماء عندما حوله الساسة إلى أغراضهم. فزوال الحدود وتقارب المفاهيم وزوال الحواجز كلها فوائد إن سلمت من شر الساسة إلى أغراضهم. ولعلني أقول من باب الطرافة "الألعاب الرياضية هي وحدها التي عولمت واستوت فيها حظوظ الفرد. هذا إذا أبعدنا عنها شبح الاتجار " والتصنيع" البضاعي في ذواتها.

بعد هذا لا يمكن لعاقل أن يلومني إذا قلت أن الموت من أجل الوطن هو أكذوبة من صنع السياسي. وهكذا يكون الصواب أن نمجد الطيار الذي رفض أن يسقط حمولة طائرته على المكان الأهل وإفراغها في البحر

أو الصحراء. ثم فضل السجن على الصعود في طائرة تحمل الدمار - وقد حصل بعض من هذا في إسرائيل الذي أدرك بعض شبابها أنها عصابة من العسكريين المغامرين وأنها لا تزيد عن أداة استعمارية وقهرية وإرهابية في يد الطغاة واللاإنسانيين - وأدرك هؤلاء البعض أن العرب ليس هم الذين فتكوا باليهود وأدركوا أن الشر في صناعة الشر. ولعل المفهوم الإنساني قد يفسر كما ذكر تيمالا في رواية " الزمن ورؤوس الحية " أن اليهود الذي لا يتعدى تعدادهم أربعة ملايين ما كان للعرب أن يرفضوهم لو جاؤوا كمواطنين ومتعاونين وفنيين لكان وجودهم على امتداد البلاد العربية مرحباً به ولكن غاية المجيء كما هو معلوم تحمل الموت معها وزراعة الكراهية وتحقير المعتدي عليهم من العرب.

س - التحرر والسلم والتعايش السلمي والحوار الحضاري هي دعوة تغطي على جل أعمالك هل يعود ذلك إلى أثر البيئة والثقافة المكتسبة من الفترة البورقيلية. أم إلى تنقلاتك في أوروبا وقراءاتك المتعددة.

ج - سيدي إن هذه السمة الموسومة بها أعمالي كما أشرت هي سمة يوسم بها الإنسان الطبيعي السوي ولذلك قد ادعى أن لي من هذه السمة شيئاً. أما الاحتمالين الذي ذكرتهما قد يصحاح إلى حد. فالبيئة قبل الثقافة المكتسبة من الفترة "البورقيلية". فأنا ولدت وترعرعت في الريف حيث الشرائط البدوية وحيث المحيط الطبيعي الغير ملوث لا بالعنف ولا بقلة الحياء. ولذلك نشأت على الفطرة وبراءة أهل الريف. ثم صادقت في طفولتي زيادة على أترابي في "الدار" صادقت كائنات حية ودبابة هي بعض مواشي الوالد من الغنم والبقر. وقاسمت صغار النوق حليبها. أما الفترة "البورقيلية" أدركت الآن مدى تميزها عن تجار الدول الأخرى في إفريقيا والدول العربية. وهذا التمييز يكمن في أن شخصية "الحبيب بورقيلية" بالرغم من النواقص وبعض العيوب هي شخصية رجل على ثقافة عالية وإن كانت غريبة البعد يشوبها تعسف عالم ثالثي عجيب ونرجسية شفونية أفسدت بعض جوانبها. لكنها تظل شخصية رجل سياسة خريج "جامعة السربون". ورجل على دراية تامة بل فائقة بالتاريخ وأساليب الغرب وكانت له نظرة استشرافية وانتهازية ذكية وخبيثة في آن واحد في اقتناص الفرص. وهي إحدى الشرائط الغربية. والجانب الذي أرى أني أنسجم فيه معه هو مدنيته وبعده عن الأساليب العسكرية حيث أنه بخلاف الكثيرين من زملائه قادة الدول الحديثة لم يعتمد يوماً واحداً على الجيش أو البوليس في تسيير حكمه والحفاظ على سلطته وإنما اعتمد على تقوية العصبية للحزب الدستوري وهو حزب مدني بآتم المعنى وعبأ حوله كل الفئات ومن كل الجهات حتى وإن كثر فيه المتزلفون والوصوليون فكان يحسن توظيفهم في إيصال ما يريد.

أما الاحتمال الثاني فهو أيضاً فعلاً فخلال تجوالي في البلدان ومعاشرتي لعديد الأجناس خلال تواجدي بفرنسا. ثم تأثرتي بمطالعاتي المكثفة والواسعة كونت عندي أن الإنسان واحد وأن أكثر الناس لا يحملون الشر وخاصة الشباب والطلاب ورجال الثقافة. فنشأ عندي اعتقاد أن المثقفين لو أتيح لهم قيادة الشعوب لانتشر العدل والمحبة في فجاج الأرض كلها. ولهذا ما زلت أمل أن تتقدم الثقافة والرياضة والمحبة عن السياسة وتشكل قوة اعتراض على حمق رجال السياسة.

وهذه حالة أشار لها القرآن فقال جل جلاله: "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولي العلم قائماً بالقسط" وتذكر مثل هذه الآيات في رجال حتى وهم أبعد الناس عن الدين. ويذكر موقف جون بول سارتر من حرب الجزائر ومواقف الكثيرين من رجال العلم والثقافة والرياضة الراضة لغطرسة أهل السياسة في حق البشر.

وأكرر مرة أخرى حلمي بأن يتغير العالم الأرضي من الشرور إلى الخير وأن مسؤولية رد الطغاة وتبصير الناس تلقى الآن على كاهل الشباب ورجال التعليم والثقافة والرياضة. ولعلني أكرر دعوة "تيمالا" لنحمل أطفالنا ونساءنا ونقدم نحو صفوف الجيوش متجاوزين حتى مصانع السلاح وأبواب التكنات ونحمل الزهور معنا. فسيكون النصر لنا لا محالة... فهناك من يسخر من مثاليتي هذه ولكني مؤمناً أنها هي الطريق المؤدية إلى خلاص البشرية.

س - يقول بطل من أبطال (على مرافئ الجنون) " سيلفي لا تميل لي إنساناً وإنما فحلاً يأتي رغبتها" هل هي الحرية و التحرر أم أن جسد الأوروبية يشبه تربتها التي لا تصبر على المطر أكثر من شهر فتعلن الجفاف والقحط والدعوة إلى السقيا ؟

ج - إن الجواب عن هذا السؤال يتطلب نقلة ذهنية مغايرة تماماً لرواسب ما يسمى بالرجل الشرقي اصطلاحاً ولا أقول المسلم. فالذهنية السائدة قبل الآن والتي مازال الكثير منها يعدها صواباً تتلخص في اعتبار الأنثى مفعول بها وليست فاعلة وفي الحالة القريبة من الإنصاف هي مشاركة في الفعل أو مساوية حتى أصبحت هذه النظرة كأنها قاعدة تؤمن بها وتستسلم لها ولا تجرؤ على تجاوزها. ولذلك البطل عندما يتحدث عن "سيلفي" يكشف أن المرأة في الغرب تجاوزت حد التساوي. وأطاحت بمفهوم الفاعل والمفعول به إلى متفاعل قد يزيد فعله عن الفاعل فتتحول العملية إلى حاجة يبحث عنها دون اعتبار الحب والجمال. وإنما تترف بقتنى اقتناء ولا يهم المصدر. وهي حالة من التحرر من المتوارث من التقاليد وخلص من التخفي والتستر خلف قناع النفاق الأخلاقي

والمظهر الزائف من خداع التعفف المصطنع. وهو ضرب من ضروب التحرر في التعبير. وأذكر حالة التباس وقعت لي وأنا في إحدى ساحات مدينة برشلونة الإسبانية حيث وقفت وكانت الساعة تجاوزت منتصف الليل. وقفت أنظر إلى مجموعات من الشبان بينهم مجموعات من الصبايا اللواتي لم تتجاوز أعمارهن السابعة عشر وهن مخمورات ويمارسن القبل والمداعبات المفرطة والمتجاوزة لكل أعراف الحياء. فوجدت سؤالاً منتصباً أمامي مفاده هل هذه هي " الحرية"؟ وماذا كان يكون موقفي لو أن ابنتي من بين هؤلاء؟ ولعلني أسأل أي شرقي هذا السؤال ثم قارنت بما شاهدته في شارع "الرمبلا" الشهير في مهرجانات خطابية وحملة الانتخابات على أشدها آنذاك بما فيها من صخب وتقاذف. هذا يبدي مساوئ الآخر حاكماً كان أم معارضاً. فالسؤال الأول تحول إلى تساؤل مفاده هل الحرية كل لا يتجزأ. وذهب بي التأويل إن أنا أرفض أن تمارس ابنتي هذه الحرية بدعوى أنني أنا ولي أمرها. فهذا يحيلني ألياً أن الحاكم في بلادي هو ولي أمري ومن حقه منعي من ممارسة ما لا يرضيه. لكني أخيراً لم أقر هذه الحرية بهذا المفهوم الشامل. ولذلك أفسر رغبة "سيفي" ك رغبة مادية أو مصلحة لا تختلف عن دعوة امرأة ما لرجل له قدرة فائقة على تزويج جناح بيتها الذي لا يمكن لزوجها أن يأتي بهذه الجودة في التزويج.

س – لكي يتزوج البطل حبيبته يقوم بفض بكرتها، ليس نكايه في بن عمها وإنما لكي لا يتزوجها؟ أهو الجنون لأن السارد كان يروي ذلك وهو في حالة الهذيان؟ أم تراه الحل لا أقول الأمثل في ظل التقاليد التي تفرض على الأنثى الانتظار والصبر، وهو نوع من الجبر الذي لا يمارس ضد الرجل؟

ج – أما الجواب عن هذا السؤال يحملنا على نقلة ذهنية عكس الذهنية التي جرى بها الحديث في السؤال السابق حيث أننا في هذه الحال أمام قيم أخرى منها الإيجابي ومنها السلبي. الإيجابي هو ما جبلت عليه مجتمعاتنا من حفاظ على جعل البنات ثيباً بكرًا وكان هذا النعت من حيثيات عقد الصداق بل موجب الذكر عند الكتابة. وهو يعني أن البنت لا تعرف ذكراً غير المقصود بالعقد. وذهاب هذا الشرط يفضي إلى فساد عقد الزواج.. والالتزام به هو أسوة بقول المولى عز وجل لرسوله. "عسى ربه إن طلقك أن يبدله ثابته وأبكاراً" وهنا ندرك محمودية هذا النعت وأنه من القيمة بمكان. ثم كان الناس يسارعون بتزويج البنات حتى تنال حقها مبكراً. ولذلك - وهذا من واقع الحياة- يلتجئ المحبين إلى وضع الأهل أمام أمر واقع. يتخبرون ابتلاع مرارته والقبول به أخف من تبعاته التي قد تؤدي إلى انتحار الأنثى أو قتلها. وقد ترسخت شهادة النسوة على ذلك بحضور "ليلة الدخلة" والإطلاع على قميص العروسة. فأما أن تعلقو الزغاريد وأما أن تقوم القيامة والحداد وتحدث أشياء مأساوية. فنتمرغ ووجوه في تراب العار والحديث يطول في هذا الشأن.

أما الجانب السلبي هو الغلو والتشدد في هذا الشأن ثم كشف الستر عن المخطئة بصفة هالكة. وهذا الغلو والتشدد لا نجد له أي سماحة مع " من ستر مؤمنا ستره الله يوم القيامة" ومن السلبي والغير شرعي التصرف في البنات عطاء وتزويجاً دون اعتبار لرأيها. بل يذهب بعض الأهل إلى الطعن في رأيها واعتبارها لا تعرف مصلحتها. والسلبي هو هذا الاعتبار حتى وإن كان فيه شيء من الصحة فالأفضل الحوار معها ومحاولة إفهامها إن الأمر هكذا يكون أصوب. وعند التغاضي عن هذه الحقائق يقع الذي وقع مع بطل الرواية.

س – لماذا كنت تسرد الكثير من القضايا المتعلقة بالسياسة والجسد في قالب هذيان أي الأعراف ونظم التحريم أم الدين هو الذي يمنعك عن حديث الشباب والفتيات فنتستر بالهذيان؟

وتقول أيضاً: تتعتون آلة الجنس نعتاً قبيحاً وهي مصدر الحياة!

ج – لا يخلو هذا السؤال من خلفية أو النباش في المقاصد والغايات وحتى الأهداف المخفية وراء " الميثانص" أو "الأجوريك" وفي كل مذهب تذهب تجد تأويلاً. واسمح لي بسردي حكاية أو قل طرفة جاءت في كتاب "عقلاء مجانين" تتمثل في رجل أقسم أن يستشير مائة شخص في مسألة فسأل تسع وتسعين ثم عزم أن يسأل أول من يصادفه فصادف مجنوناً. فقال له المجنون عليك شرطاً أن لا تسأل عما لا يعينك ولكن لما أجابه هذا المجنون عن مسألته بذكاء وحكمة نسي الشرط وقال له ناشدتك الله ما الذي غير من أمرك. غضب المجنون من السائل الذي أخل بالشرط. ثم أجابه إنني رشحت لخطبة قاضي فاخترت ما ترى على القضاء.

إن الحكمة من جنون من له علم في زوال الحذر من خطابه وذهاب الخوف فيقول ما يرى ويعتقد بكل مباشرة ودون لف وتخفي وراء المعنى المراوغ... واسمح لي أن أذكر حالة حاكم عزل تحت طائلة فقد المدارك العقلية. وقد شهد الأطباء بذلك. ولكن بعد العزل قيل له أنه هناك من قدم بك قضايا تتعلق بجرائم ارتكبتها أثناء حكمك. ضحك الحاكم المعزول بسبب " ضياع المدارك" وقال يبدو أن مدارك صاحب هذه الدعوة هي المختلة. ألا يدركون أن فائد المدارك لا يكتب عليه "القلم" وأنه لا حرج عليه فلا يحاكم أو يقاضي. وقد يفهم سيدي هذا القصد وهذا المثل. أما بقية السؤال فمن منظور هذا الذي يهذي يأتي الصواب فهذه التي نعتنا قبيحاً تحدد قيمة الشخص بمقدار ما تكون سلمية سوى كانت الذكورة أو الأنوثة يكون الإنسان مكتملاً والعكس هو الإعاقة والعجز وانسداد مصدر الحياة. ولذلك المجنون يقول الصواب بدون شك.

س - الناس يعتقدون أن "التشرد" شيمة مردولة، وأنت ترى عكس ذلك وانه يدفع نحو الأعلى ويتحول إلى شيمة مفضلة تجعل الأفكار تتسرب بلا حائل أو مانع ما هذه المفارقة العجيبة حدثنا عن ذلك بفيض من التشرد؟ وهل مارسته؟

ج - معنى التشرد الذي أقصده هو "الضرب في الأرض" ولكن هناك ضرب قد نقول عنه "سياحة" أو تنزه ومع ذلك فيه مما به من تشرد بالرغم من اختلافه مع التشرد الذي يؤدي بصاحبه إلى اكتشاف المنازل التي ينزلها وهو في حالة من الحاجة وفي حالة اقتحام لهذه المنازل الجديدة والغوص في غدائر المجتمعات المختلفة وطبائعها غير مألوفة. وما يصاحب ذلك من مواقف مأساوية كحالات الطرد والنهر والمنع وحتى الجوع والمبيت في العراء. والبحث عن سداد لقمة اليوم. فمن خلال هذه الأوضاع تصاع لدى هذا الضارب في الأرض أو قل المتشرد رؤى حبلية بالمتغيرات والمفاهيم غير المألوفة وتتحول حاله كالدخول إلى الغابات قد يكتشف خمائل وحشائش ونباتات وجدول حياة برية أخرى كما يلاقي ووحوشا وسوما ومنزلاقات خطيرة. ولهذا قلنا إن التشرد ليس عملية مذمومة. ولنا أمثلة في الرحلة فلو قلنا إن ابن بطوطة بما هو النعت المتعارف عليه "رحالة" ففي الحال التي نتحدث بها قد يمكن أن يكون متشردا. فهو خرج من مدينة وبينة فتحوّل إلى مكتشف. وقد نسمي هؤلاء الذين من أمثاله من صحفيين وباحثين ومكتشفين. هم صنف من المتشردين.

أما علاقتي أنا بالتشرد فكانت موصولة حيث مارست هذا الضرب من الحياة في بداية سبعينيات القرن العشرين عند تواجدي بأوروبا. فكننت أسافر عن طريق شحذ أصحاب السيارات ليأخذوني معهم. فأقطع مئات الكيلومترات وأنام في دور الشباب وأحيانا في المحطات أو قاعات مشاهدة التلفزيون بالمباني الجامعية سواء كان ذلك بألمانيا أو فرنسا. وقد صادفت أجناسا من الشباب أمثالي من كل بقاع الأرض. ولم يكن همنا إلا التجوال أو قل التشرد واللقاء من أجل تبادل الضحكات أو ممارسة بعض الغرام والملاطفات. وهكذا يظل لمثل هذه الصروف الطعم والأثر البالغ والراسب في الأعماق حتى أنها يمكن وصفها بأحسن لحظات الحياة فلها مذاق مختلف عن حالي اليوم أو حال المترفين الذين ينزلون بالفنادق وينامون في الغرف وتهتم بهم الغلمان والصبايا المضيفات ويأكلون على موائد فاخرة. ولذلك أقرّ أنّي مدين في تكويني وأسلوبه الإبداعي لهذه الظروف التي أثرت تجربتي في الحياة. ولعل الكثيرين يعتبرون أيام الدراسة والحاجة لبعض الدريهمات التي يجود بها الأهل أو يكتسبها الطالب بجهد في أوقات يقتصرها من وقته تظل هي الأجل. وكم من طالب عاش التشرد والمبيت خلسة مع بعض الزملاء. إذن هذه هي حالة التشرد الممدوحة.

س - حديث التشرد يقودنا إلى حضور الترجمة الذاتية- كما يقال- في نصوصك الإبداعية "على تخوم البرزخ، ورواية على مرافئ الجنون وأخيرا المستنقع". ما مدى صدق هذا الحديث الذي ورد عند بعض النقاد التونسيين وخاصة أثناء قراءتهم لرواية "على تخوم البرزخ"؟ أم تراهم أسقطوا الترجمة على التجربة الفنية والذاتية؟

ج - حمل هذا السؤال الجواب في ذاته. ومع ذلك يمكن أن أتحدث في هذا الشأن. فأقول بداية أن الكاتب لا يكتب بأي حال من الأحوال من خلال تجربته الذاتية. وليس بالضرورة من سيرته الذاتية فالكاتب لا تمر أيامه وحتى ساعاته دون تأمل ونظر فيما حوله وهكذا يصبح هذا الذي حوله شيئا منه ومن سيرته. ولناخذ مثل رجل المسرح أو السينمائي هذا الذي يتقمص الشخصيات حتى يتماها الأمر ويلتبس على المشاهد فينظر -على الأقل ساعة العرض- أن "مصطفى العقاد" قدم لنا "أنطوني كوين" على أنه عمر المختار فجعلنا نعيش مع عمر المختار قائما حاضرا. وفي أخرى نرى "أنطوني كوين" "زوربا الإغريقي". مع مخرج آخر. وهذه الحال -أي حالة النقص- نفسها أو بشكل آخر هي حال الكاتب وهو يتقمص شخصيات رواياته. فمن الغباء الاعتقاد أن كل ما يسرده الكاتب بضمير السارد هو من سيرته الذاتية. فيمكن أن تكون مواقف عاينها أو سمع عنها أو تخيلها. ولذلك أفضل استعمال مصطلح التجربة الحياتية أو الذاتية حتى يمكن الإلمام الأشمل بالمعنى ولذلك كما قلت سيدي إن الحديث عن التشرد يقودنا فاسمح لي أن أشير إلى أن التشرد وسم أعمال كبار الروائيين وشخصياتهم بداية من الكاتب الروسي "مكسيم جركي" الذي عاش يتيما متشردا وعمل حتى مساح أحنية ثم الكاتب العربي "حنا مينا". وكذلك "مركز قوسيا" في شوارع باريس. و"أرنست همنجواي" وهو يتابع مخلفات الحرب الأهلية في إسبانيا وغيرهم كثير.

هنا قد تدرك الصدق من الإسقاط الذي أشرت لهما. فالأصل البحث في التجربة الذاتية ومدى الصيغ الفنية التي أطرب لها.

س - هناك مسألة الرقم ثلاثة في بعض أعمالك مثلا الخط ثلاثة في مرافئ الجنون والأبطال ثلاثة من ثلاث جنسيات ميشال، كلارا، وهاماتا والعناوين ثلاثة واشتغال السرد على ثلاثة ضمائر في رواية "على تخوم البرزخ" هل هذا محل المصادفات مع جلب الخير والمنفعة ودرء الشر والضرر؟ أم هو اختيار منك وله علاقة خفية بالحروف ونسيج النص يجهلها القارئ؟

ج - حيرني هذا السؤال وهذا الاستنتاج. أنا لم أقصد أي رقم ولا أمن بالخير والشر من خلال الأرقام فأنا أشكرك سيدي على هذا الاستنتاج وهذه الدقة في قراءتك. مرة أخرى أؤكد لك أنني لم أقصد شيئا وإنما مجرد الصدفة.

س - 10 سي المحسن هناك مسألة الذات والنحن والوفاد أو الآخر ومسألة التفاعل معه، كيف تكتب هذا الآخر وكيف تنظر إلى التفاعل معه وهو المغتصب والشرير والمستدمر؟

ج - سيدي قد لا أجازيك في التناول في الاغتصاب والشر والتدمير حتى وإن كان هذا التناول فيه من الصحة الكثير لأن مقابلة الآخر بالرفض تدفع إلى العمى وعدم الإبصار لنقاط الضوء فيما عنده والمقابلة بالمثل. وهذا يدفع النظرة السوداء وانقطاع التلاحق ويمكن لي أن أستشهد برأي "جورج قرم" في كتابه شرق وغرب الشرق الأسطوري حيث يقول في هذا المعنى "حدود العلاقة الراهنة بين الشرق والغرب، فإن على المثقف العربي أن يعمل من أجل استيعاب الثقافة الغربية استيعابا نقديا، وأن يكشف عن الوجه النرجسي في الثقافة الغربية، الذي يمجد ما هو غربي، ويستخف بما هو غير غربي. وعلى المثقف العربي أولا، أن يتحرر من طروحات الثقافة الغربية عن انقسام العالم إلى شرق وغرب لا يلتقيان، ومن حديث الخصوصيات التي يوهمه بأنه يعبر عن ذاته، في حين أنه يستظهر أفكار الغرب عنه، التي تكرر الوضع العربي الراهن، الذي يحتاج إلى تغيير كبير".
نعم النظر إلى الآخر والمعنى هنا الغرب لا بد أن تكون حسب تعريف "جورج قرم". ولكن إذا استشرنا القادم من السنوات قد تتبدل النظرة وذلك بما أعتقد أن زوال المفهوم الآخر سيضمحل في الأنا الإنسان عامة المتجاوز لحماقات الراهن والذي سينظر لآخر بعيدا عن مجموعة الناس التي تستوطن الأرض وذلك في الكواكب البعيدة المشابهة في تكوينها ومناخها للأرض داخل مجرتنا أو خارجها ونحن علمنا من قبل أن ملك الله واسع.. ثم يشير كلام الله أنه له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما.. وقبل الذهاب لإثبات أو نفي وجود مخلوقات أخرى تتأمل في التغييرات في العلوم في العلاقات وتقارب المفاهيم بسرعة مذهلة لم يعهدها الإنسان في القرون الماضية. والتي سيجتمع عليها أجيال القرون أو حتى القرن القادم والتي ستلغي السائد من الأعراف. ولذلك حقيقا علينا أن نساهم في بناء هذا النمط القادم والإسهام فيه أو نطرد خارجه ونطرح كما تطرح النفايات.
س - يبدو لي أن المحلية ليست كافية بالنسبة لك لكتابة رواية فلا بد من حضور أوروبا وتوابل أوروبا التي تستفز العين والأنف معا؟

ج - لم أدر كيف أجيب عن هذا السؤال!.. إلا إذا فهمت أن المقصود بالمحلية البيت والنهج والمدرسة. فدعني أقول لك. إن حتى هذه الأماكن التي تبدو خاصة. لم تعد كذلك. ففي داخل بيتك وحتى غرفتك وقاعة جلوسك توجد الأرض بأسرها وما اصطلاح عليه قديما بالعالم. فأنت تعيش مع الأمريكي في "كاليفورنيا" والأسترالي في "سيدني". تعيش في "نيودلهي" وتشاهد تفاعل الناس فيها وأخرى تجد نفسك فيها تتابع البطاريق وهي تتمايل في القطب أو الوحوش أسود وفيلة في أدغال إفريقيا أو الحوت والدلافين والأسماك الجميلة الملونة في أعماق المحيطات.. أو واقف في جبهات الحروب وإلى ما هنالك من المشاهد. وعلى هذا الأساس المحلية القديمة ماتت وكل ما نكتبه محلي بالضرورة. أما ما نعته بتوابل أوروبا هي الأخرى تسكن بيتي وسريري وأساليبيها تلاقيني في طريق التعليم وطريق التعامل مع الإدارة. فأوروبا لم تعد ذاك الآخر بل هي هنا في لباسنا ووسائل نقلنا وحتى في لغتنا وعاداتنا الجديدة كالاستهلاك وطرق التسوق والتعامل. ثم هي لا تبعد عنا كما كانت تبعد المسافة بين تلمسان ووهران بالنسبة لجدي. والذي يفصلنا عنها أصبح مجرد غدير نجتازه في ساعة من الزمن. ولذلك أنا في علاقتي مع الضفة الأخرى لهذه الغدير التي هي البحر الأبيض المتوسط هي علاقة جوار ومحلية. ولذلك إنكار محلية العالم الأرض على الأقل هي كنظرة من ساير النعامة وهي تغمس رأسها في الرمال حتى لا يرى ما يحيط به أو كالناظر من نافذة القطار يرى الأشجار متلاحقة والحقيقة أنها واقفة. ومع هذا الإنكار حاولت أن أكتب أو أظهر أن ذلك لا يعجزني فكتبت رواية "المستنقع" بصفة محلية ضيقة ولكن ذلك لم يحل دون التنفس في رئة المحلية الأوسع فوجد بعض أبطالها استنشاق الهواء خارج المحل أي في المحلية الأوسع فكان المتنفس أوروبا. والذي يدقق النظر من خارج المحل إلى المحلية يلاحظ الارتباط والتداخل بين الأطراف مما يجعل عدم الترابط هو الخلل.

س - فلسفة الموت والحياة في كتاباتك وعلاقتها بالأعمال والحضارة و السلط بمختلف أشكالها وأنواعها وبفضية الحرية في ظل الأنظمة "الجملكية" مسألة شائكة بالنسبة لمتلقي المحسن بن هنية ما قولك في هذه القضية؟

ج - ماذا أقول في ما رأيته شائكا سيدي وما نعته بفلسفة الموت والحياة وتعالقها بالحضارة والأعمال و السلط فهذه المعطيات الثلاثة تشكل أعمدة الحياة والقفز بعد الموت. فمعطى الحضارة هو الوعاء والرحم الذي تتشكل وتتبلور فيه الأعمال وبقدر أخلاقية المعطى الحضاري بقدر إيجابية الأعمال واقترانها بحدود العدالة فتكون المنهج والأساس انطباقا لتعريف ابن خلدون "العدل أساس العمران". معنى العمران هو التوفيق والانطباق على

مصطلح "الحضارة" المنقول عن المصطلح الغربي الذي لم يكن متداولاً أيام ابن خلدون. وهنا نتأمل مفهوم الأعمال في الدين والحضارات الشرقية فلا نجد لمفهوم "الغاية تبرر الوسيلة" وهو الذي يحيل الأعمال إلى السلبية المغرقة في الفسادة والغطرسة. ولذلك نمدح الأعمال في حال الإيجابية ثم نمقت ونعترض بل نحارب الأعمال في الحال السلبية.

وهكذا نتضح المفاهيم ويكون معطى الأعمال في إطار حضاري إيجابي لا خلاف فيه. وهنا يكون معطى الحياة مطلباً محموداً ينسحب على عمارة الإنسان في الأرض وخلقته لله في تدبير جدارة الحياة حتى يخلص إلى قيمة الحفاظ على رعايتها وحرمتها. وأن التفريط فيها أو العبث بها هو بمثابة القضاء على كلية الحياة. هكذا من قتل نفساً بغير حق كمن قتل الناس جميعاً.

أما معطى السلطة فهو النقطة المتفق عليها جماعة لا بمعنى التسلط الذي يمارسه بشر على آخر تحت طائلة الحكم والتحكم بأحكام يملكها ويسنها كل قوي حسب أهواء ومصالح هي أيضاً تدخل في المعنى السلبي الذي ذكرته سابقاً أما إذا أردنا أن نعطي لمعطى السلطة الصبغة الإيجابية فإننا نأخذ بأحكام هي خاصة من أهواء البشر المتسلطين وذلك عزيز وجودها إلا في أطر دينية خالصة متجاوزة للضعف والتقصير في العلم والاستشراف ولا يملك عكس هذه النقصان إلا الكامل والكمال إلا للخالق.

عسى أن أكون قلت كلمة هي إلى الصواب أقرب في حل هذه التي وصفتها بالشائكة مع المتلقي .

س - هل تعتبر "الحصان" قصة أم مجموعة فيوضات معرفية تقتنص الحكمة النابعة من تجارب الذات؟

ج - بقدر قصر هذا السؤال بقدر ما فيه من إحياء وكثافة قد لفتا انتباهك وأنت تقرأ النص. وبقدر ما أثرت في وأنا أعيد قراءة هذا النص الذي كتبته منذ ما يزيد عن أربع سنوات فوجدته وكأنه كتب الآن أو أنه بعد لم يكتمل كتابة لأنه من النصوص التي تكتب في حالة يكون فيها النص كالقبس الذي يشع بعيداً عن الزمان وخارج المكان وإنما كطائر من ألق يتخطى أفواس قزح. فيفرض على كاتبه مجاراته وهو في هالة من الفيض طائعا منجذباً. فيلد النص متجاوزاً للمدلول الثابت إلى دلالات متعددة المشاهد من خلال نوافذ هذه تفتح على الأخرى وصور الواحدة تحيل إلى الأخرى. أو بمنهج تعدد الرؤى والمنطلقات حتى أن الذي يذهب في الظن أنه اقتنص حكمة يكون عند آخر قصص أطراف حكاية بشكل التشظي خلافاً للحبك والاسترسال فتكون أطراف الحكاية هي القتيصة والمتلقي هو القانص. وبذلك ما تكون تجربة الذات وعاء كالبوقة تختبر فيه تجارب الذوات بنتائج ذات انطباق يلائم كل رغبة مرغوبة وبالشكل والحالة المنشودة. ويمكن مثلاً اختصار نص "الحصان" هذا مثلاً في أنه دورة الحياة بداية ثم نهاية.

س - البحث عن الشكل الروائي الملائم يبقى هاجساً متقدماً ورؤياً لرؤيا متوترة، والتوتر ليس في الشكل ولكن في إدراك العالم كما يقول الناقد المغربي "سعيد يقطين". فما هي العوائق التي تقف في وجه هذا الإدراك؟ وماهي الشروط الكافية لإتمام عملية الإدراك؟ وهل الشكل هو الموصل إلى المعنى أم العكس؟

ج - في أديباتنا وموروثنا اللغوي الشفاهي المتداول نقول "الكمال إلا لله" وعملية الكمال جبلة في تكوين الإنسان الذهني يصبو إليها منذ بداية الحياة وإدراك الغايات. ثم وبصفة ألح عند المبدع هي المنشود والغاية. فمن أول خطوة يتلبسه هاجس البحث عن المغايرة والاختلاف والإتيان بما لم يأت به الأوائل. وتكون درجة الإدراك أو محاولة إدراك الأشياء والعالم المحيط تعتمل في داخل المبدع كما يعتمل المعدن داخل مرحلة الصهر. فنخلص إلى رؤية فيها من الموتور فيضاً يعبر عن قيمة العناصر المنصهرة في داخله هذا الداخل الذي يعطينا إبداعاً مسكوباً على شكل مخزون القوالب المكتسبة من حصاد الإطلاع الواسع على تجارب الآخرين ثم المكررة قولبتها في إطار المشاكل والمعاناة التي أحاطت بشخص المبدع فينتج عنها ما عبر عنه وأورده الدكتور "تامر سلوم" سوى إفاضة أو امتداد لوجدان المؤلف ومشكلاته الشخصية. أو هو نمط من العدوى الانفعالية أو ترجمة عن نفسه. وعلينا أن نجعل شخصية المؤلف وتاريخه وأذواقه وأهواءه قبلتنا الأولى في البحث. فهذه المشكلات الشخصية هي خالقة المعنى كله، ولن يستطيع القارئ أن يفهم المعنى بمعزل عن التجارب الشخصية للمؤلف أو حالته الفردية أو انفعالاته الذاتية

ونرى الدكتور "تامر سلوم" يقول بهذا الرأي في مقالة عن رولان بارت. المدعي أو الداعي إلى موت المؤلف. وقد يبدو في الأمر تناقض والحقيقة ليس كذلك لاختلاف القصد عند عملية القراءة أو التلقي التي لا توجب حضور المؤلف بل تصح الدعوة إلى موته. لأن المتلقي يتفاعل مع نص انفصل عن كاتبه وصار كائناً مستقلاً عن كاتبه وصار كائناً مستقلاً عن مبدعه كالمسيارة عن صانعها ننتفع بفوائدها بعيداً عن صانعها. أما الحالة الأخرى هي حالة دراسة النص والبحث عن الأسباب المؤدية إلى ولادته والأب المنحدر منه.

أما إدراك العالم يظل غاية منقوصة عصية البلوغ بالمعنى والشكل معاً. لسبب منطقي مسلم به وهو الواحد لا يدرك الكل.

س - قاموسك اللغوي مرتبط بالأنثى. الأرض \ المرأة .

ج - الحياة أنثى. اللغة أنثى. الكتابة أنثى. الأرض أنثى. السماء أنثى. غاية التقاة الجنة وهي أنثى. وبفعل الذكر جننا إلى الدنيا عن طريق الأنثى .. إذن الأنثى في كل أبعادها وأشكالها وحضورها وغيابها. فإذا كانت أما فالجنة تحت أقدامها. وإذا كانت زوجة حبيبة فالسكن إليها قاعدة. ولذلك عدم حضورها في القاموس اللغوي للكاتب هو الشذوذ عن القاعدة والاستثناء. **قد نجزم إن نسا خلا من عطور الأنثى هو شبيها ببيت لا تمرح فيه هذه الأنثى.** **ومعنى ذلك انسداد درب الحياة بتوقف الإيجاب وهذه عملية تؤدي إلى الانقراض.**

هذه النظرة هي الصحيحة وهي الفطرة والخطاب جاء يجمع المذكر ويجمع المؤنث "المؤمنون والمؤمنات. المتصدقون والمتصدقات". والخلق من نفس واحدة ثم إنهن شقائق الرجال. وما دون هذه الفطرة معناه التحريف وأنا لا أسمح لنفسني بتحريف الأشياء. شكرًا سيدي المحسن على هذا الكرم التونسي الذي غمرتنا بع وعلى هذه الضيافة الجميلة والرائعة التي لم نكن نحلم بها؟ كم أنت رائع ونبيل؟

* المحسن بن هنية من مواليد منطقة سيدي بوزيد بتونس يجمع بين وظيفتين قلما اجتمعت في رجل وهي إدارة الأعمال وفن الكتابة، لكن ميله للكتابة يطغى على حرفة إدارة الأعمال. يكتب بأسلوب يجنح للحكمة وتحضر الأجواء الفلسفية والصوفية في أعماله بكثافة ويوظف خبراته الذاتية والإدارية والتقنية وأسفاره ورحلاته في أوروبا ولقاءاته بمختلف الأجناس البشرية في كتاباته الشيء الذي جعله يهتم بالإنسان ن ولاشيء غير الإنسان وقضايا المعاصرة وخاصة قضايا التسلح والتجنيد والحروب والقتل، همه نشر السلم بين مختلف بني البشر. مؤلفاته : ثبات رواية، الزهرة والخريف مجموعة قصصية ، على تخوم البرزخ رواية، مرافئ الجنون رواية ، الزمن ورؤوس الحية رواية، المستنقع رواية ، وأعمال أخرى.

© مخبر وحدة التكوين و البحث في نظريات القراءة و مناهجها.

جامعة محمد خيذر بسكرة، الجزائر. 2009.

<http://labreception.net>